الفصل الثانى

البحترى فى عصره

١ ـ حياته

ولد البحترىّ فى العام السادس بعد المائتين هـ ، وسمّاه أبوه : الوليد، وكناه بأبى عبادة ؛ ولكن الاسم الذى شهر به الشاعر فى عالم الأدب ، واستتر تحت شهرته اسمه وكنيته هو البحترىّ ، نسبة إلى بحتر أحد أجداده[١] .

والبحترىّ هو الوليد بن عبيد بن يحيى ، ويذكر له مؤرخوه سلسلة نسب تنتهى بطيئ[٢] ؛ فهو يمنىّ قحطانى من ناحية أبيه ، ولكنه عدنانى من ناحية أمه التى تنتسب إلى شيبان ، وهى قبيلة ينتهى نسبها إلى ربيعة من عدنان[٣] . وقد أخبرنا مؤرخوه بانحداره من طيئ ، وحدثنا هو بذلك فى كثير من شعره ، كقوله مفتخراً :

إنّ قومى قوم الشريف قديماً وحديثاً : أبوّةً ، وجدودا
ذهبت طيئ بسابقة المجـ ـد على العالمين بأساً . وجودا[٤]

وأما أن أمه من شيبان فلم يحدثنا عنه التاريخ وإنما عرّفنا به البحترىّ حين قال :

أعمرو بن شيبان ، وشيبانكم أبى إذا نسبت أمى ، وعمركم عمرى

وهو لذلك كان يعدّ ربيعة كلها أخواله فيقول :

أسيت لأخوالى : ربيعة ؛ إذ عفت مصايفها منها . وأقوت ربوعها[٥]

شهدت منبج ولادة البحترىّ، وهى فى الشمال الشرقىّ من حلب ، وعلى

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٨ . (٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .
(٣) راجع سلسلة نسب شيبان فى العقد الفريد ٢ : ٢٢٩ .
(٤) البأس : الشجاعة والقوة .
(٥) أسى : حزن . وعفا : امحى . وأقوت : خلت من سكانها .

بعد قريب من غربيّ الفرات ، يقول عنها ياقوت : « هى مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، فى فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبنيّ من الحجارة ، محكم . . . وشرب أهلها من قنى تسيح على وجه الأرض ، وفى دورهم آبار ، أكثر شربهم منها ؛ لأنها عذبة صحيحة »[١] .

تلقى البحترىّ ثقافته الأولى فى منبج ، وهى لا تزيد عادة على حفظ القرآن ، وشىء من بليغ الشعر والنثر ، وتعلم أحكام الدين ، وسنة الرسول ، وأخذ طرف من علوم اللغة ، وأخبار الفتوح والمغازى ، وأيام العرب وأنسابهم .

وجرى الشعر على لسان الفتى ، لا يرجع فيه إلا إلى طبعه ، مما يدل على أنه ولد موهوباً تلك الملكة الشعرية ، فاستكثر من حفظ الشعر وترديده ، ويروى بعضهم أن البحترىّ كان يمدح فى منبج أصحاب البصل والباذنجان[٢] ، ونحن نشكّ فى هذه الرواية ، لأن أسلاف البحترىّ الذين حفظ نماذجهم لم يعرضوا شعرهم فى السوق على مثل أصحاب البصل والباذنجان ، حتى يقتدى الشاعر بهم فى هذا المجال ، وإذا كان الفتى يطمع أن ينال جزاء على شعره فليس لدى هؤلاء ما يطمع الشاعر أن يناله ، ولديه من ولاة المدينة ، وهم من بنى هاشم[٣] ، مَن يستطيع أن يظفر عنده بما يشاء ، فضلا عن أنه حين يمدح أمثال هؤلاء يعرّض نفسه لسخرية ربما حطمت آماله فى مطلع حياته ، وهو لا شك طامع فى مستقبل كبير .

وجد البحترىّ فى نفسه هذه الموهبة الشعرية فأراد أن يصقلها ويهذبها ، على يد خبيرة مدرّبة ، فمضى يلتمس أبا تمام ، وكان يجلس بحمص للشعراء ، يعرضون عليه أشعارهم ، ويسألونه الرأى فيما يعرضونه عليه ؛ وبينما هو فى طريقه إلى حمص مرّ بحلب ، وفيها فتن بفتاة تدعى : «علوة» ، ولا يلقى التاريخ شيئاً من الضوء على هذه الفتاة وأسرتها ، ولكنّ رسالة[٤] كتبها ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن الصابئ فى نحو سنة أربعين وأربعمائة هـ ، تحدثت عن دار

---

(١) معجم البلدان ٨ : ١٦٩ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٤) معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٩ .

« علوة » فهل يشعرنا هذا الحديث بأن لهذا البيت مكانة اجتماعية، جعلت ذكره محفوظاً طول هذه المدة ، أو أن اتصال البحترىّ بعلوة هو الذى منح بيتها هذه الشهرة ، وحفظ اسمها ؟

وقد رسم لنا البحترى بعض صفاتها . فهى :

بيضاء يعطيك القضيب قوامها ... ويريك عينيها الغزال الأحور[1]

تمشى ، فتحكم فى القلوب بدلّها ... وتميس فى ظل الشباب ، وتخطر[2]

وهى حبيب :

مهفهف يعطف الوشاح على ... ضعيف مجرى الوشاح منهضمه[3]

يجذبه الثقل حين ينهض من ... ورائه ، والخفوف من أممه

وظل الشاعر يذكر هذا الحبّ ، ويشتاق إلى حلب ، بعد أن رحل عنها ، ويحن إلى هذا العهد الذى قضاه فيها ، وكان لذلك أثر عميق فى غزله .

نزل البحترىّ حمص ، وعرض شعره على أبى تمام ، فتوسّم فيه النجابة ، ورأى عنده شاعرية حية ، فأقبل عليه ، وسرّ به . وظل البحترىّ بعدئذ على اتصال بأبى تمام الذى لم يبخل على الشاعر بالتوجيه ، وشرح ما غمض عليه من ألوان القول ، وحفظ التاريخ بعض هذه الدروس[4] .

ورحل البحترىّ إلى بغداد وسرّ من رأى ، فى عهد الواثق ، ينهج نهج أسلافه فى عرض شعره على رؤساء الدولة وكبار رجالها . وأراد أن يتصل بوزير الخليفة : محمد بن عبد الملك الزيات . فأنشأ قصيدة يمدحه فيها ، ويثنى على بلاغته ، حتى جعله يفوق فى الكتابة عبد الحميد الكاتب ؛ وقد تأنق الشاعر فى هذه القصيدة غاية التأنق ؛ لأنه كان يبنى عليها كبار الآمال . فإليه قطع هذه الرحلة الطويلة ، وتنطق القصيدة بما كان فى قلب الشاعر من أمل وتفاؤل ، إذ يقول :

يا نديمىّ بالسواجير : من ودّ ... ن بن معن ، وبحتر بن عتود[5]

---

(١) حورت العين : اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .

(٢) ماس : مشى وهو يتمايل ويتبختر . وخطر : مشى ، وهو يرفع يديه ، ويضعهما .

(٣) المهفهف : الضامر البطن ، الدقيق الخصر . والمنهضم : الدقيق الكشح .

(٤) راجع العمدة ٢ : ٩٢ ، والأغانى ١٨ : ١٧٢ .

(٥) السواجير : جمع ساجور ، وهو نهر بمنبج .

اطلبا ثالثاً سواى ؛ فإنى رابع العيس ، والدجى ، والبيد[١]
لست بالواهن المقيم ولا القا ئل يوماً : إنّ الغنى بالجدود[٢]
وإذا استصعبت مقـــادة أمر سهلتها أيدى المهارى القود[٣]
حاملات وفد الثنـــاء إلى أبـ ـلجَ ، صب إلى ثناء الوفود[٤]

ولكن الموت عاجل الواثق ، وأطاح المتوكل بالوزير ، فلم يطل اتصال البحترىّ بابن الزيات ، ولكنه نجح فى اتصاله بالخليفة : المتوكل ، فنال أقصى ما يستطيع أن تتطلع إليه آمال شاعر فى عصره ، ومضى البحترىّ ينشر للمتوكل دعاية دينية قوية ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الحديث عن ناحية دينية فى الخليفة ، تجعله حبيباً إلى قلوب رعيته ، رفيع المكانة فى نفوسهم . وصار الشاعر لسان الخليفة ، يسجل أعماله ورغائبه ، ويصاحبه فى رحلته إلى دمشق ، وعودته منها ، وينادمه إذا أقبل الليل ، كما اتصل اتصالا وثيقاً بمستشار الخليفة ونديمه : الفتح بن خاقان ، وظلت هذه الصلة بينه وبينهما وطيدة ، زهاء خمسة عشر عاماً ، كانت خير أيام حياته ، حتى قتل المتوكل فى مجلس منادمة ، كان البحترىّ فيه ، وقد هرب الشاعر[٥] ، وقيل : إنه نال نصيبه ضربة فى ظهره ، بقيت آثارها طول حياته[٦] . وثار البحترى لما رأى ، وأنشأ قصيدة رثاء للمتوكل ، ندّد فيها بتآمر ولىّ العهد ، مع القتلة من الأتراك .

وظل الشاعر وفيًّا لذكرى الراحليْن ، لا يكاد يلمّ به ما يؤلمه ، حتى يذكر ما كان له من سعادة ومكانة فى عهد المتوكل والفتح ، وها هو ذا تدفعه الحاجة إلى مدح من لا يراه أهلا للمدح ، فيقول فى هجاء علىّ بن يحيى الأرمنى :

---

(١) العيس : كرام الإبل . والدجى : جمع دجية . وهى : الظلمة . والبيد : جمع بيداء ، وهى : الفلاة .

(٢) الواهن : الضعيف . والجدود : جمع جد ، وهو الحظ .

(٣) المهارى : إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا : إنها كانت لا يعدل بها شىء فى سرعة جريها . والقود : جمع أقود ، وهو : الذليل المنقاد .

(٤) الأبلج : المشرق الوضاح . والصب : المشتاق .

(٥) زهر الآداب ١ : ١٩٥ .

(٦) البحترى : درس وتحليل ص ١٤ .

أمن بعد وجد الفتح بى . وغرامه ومنزلتى من جعفر ومكانى [١]
أكلف مدحَ الأرمنىّ على الذى لديه : من البغضاء والشنآن [٢]
نديمىَّ ، لا زال السحاب موكلا بجودكما بالسحّ ، والهطلان [٣]
فلو كان صرف الدّهر حرًّا عداكما إلىّ ، وما ناصاكما ، وعدانى [٤]

وبرغم أنّ الشاعر ندّد بالمنتصر فى رثاء المتوكل لم يستطع أن يظل بعيداً عن قصر الخلافة ، فقد كان الشعر فى تلك الأيام يعيش فى كنف [٥] الخلفاء ، فعمل على الاتصال بالمنتصر ، وألقى بين يديه قصيدة مدح أشاد فيها بعدله وجميل عفوه .

واتصل البحترى بالمستعين بعد المنتصر ، ولكن يبدو أن الصلة لم تكن قوية بينهما . فليس للبحترىّ فيه سوى قصائد أربع ، قالها فيه طوال السنوات الأربع التى استقر فيها المستعين على عرش الخلافة ، على حين كان المستعين يعجب به ، ويرى شعره بارعاً . قال ابن خلكان : قال ميمون بن هرون : رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن داود البلاذرىّ المؤرّخ . فسألته ، فقال : كنت من جلساء المستعين ، فقصده الشعراء فقال : لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترىّ فى المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق مـــا فى وسعه لمشى إليك المنبر [٦]

وفرح البحترى بتولى المعتز بن المتوكل الخلافة ، وكان هوى البحترىّ مع المعتز . بعد مقتل أبيه المتوكل ، وكان المعتزّ موضع رجاء الشاعر فى أن تئول إليه الخلافة . وامتلأ البحترى بالأمل ، ونال ما يتمناه من مال ومكانة ، وإذا كان قد هجا المستعين بعد مدحه فقد كانت الحوادث التى جرت يومئذ تدفع إليه : فالبحترىّ من أنصار المتوكل وأبنائه . وكان المستعين يعدّ مغتصباً

---

(١) الوجد : الحب الشديد .
(٢) الشنآن : البغض مع العداوة وسوء الخلق .
(٣) السح : صب الماء بتتابع وغزارة . وهطل المطر : سقط متتابعاً عظيم القطر .
(٤) صرف الدهر : نوائبه . وعداكما : تركككما . وناصى الشىء الشىء : اتصل به .
(٥) كنف : كهف وظل وملجأ .
(٦) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٦ .

للخلافة من المعتز بن المتوكل، وقد جرى التنافس على الخلافة فى أيام المستعين، فلا جرم كان التعرّض للخليفة السابق والنيل منه، عنصراً من عناصر مدح الخليفة الجديد.

واتصل البحترىّ بالمهتدى والمعتمد اتصالا غير وثيق، ويظهر أنه لم يمدح المستعين إلا لدافع قوىّ، كأنه يستعدى به على ظالم، أو يطلب إليه وضع الخراج عنه.

ولم يتصل الشاعر بالخلفاء والوزراء فحسب، ولكنه اتصل بطائفة كبيرة من الولاة، والأمراء، وقادة الجيوش، ورؤساء الكتاب، ورؤساء ديوان الضياع، وجامعى الخراج.

وكان البحترىّ محظوظاً فى شعره، ينال عليه جزيل العطاء، حتى لقد تبلغ العطية الواحدة ألف دينار، قال مرّة يخاطب الفتح بن خاقان:

هل الأمير مجدٌّ فى تفضله ... فنجز لى فى الألف الذى وعدا

وقال للخليفة المعتز:

وما ألف بأكثر ما أرجّى ... وآمل من ندالك إذا توالى

وعاش البحترىّ فى سرّ من رأى أيام كان فى بطانة المتوكل والفتح، وكان يختلف إلى منبج فى الحين بعد الحين، وكذلك كان فى أيام المعتزّ، فقد كان يستأذنه إذا أراد الذهاب إلى الشام، فمن ذلك قوله يطلب منه أن يسمح له بشهرين يزور فيهما أهله بعد فرقة شتتت شمله:

هل أطلعنّ على الشآم مبجلا ... فى عزّ دولتك الجديد المونق[1]

شهران، إن يسّرت إذنى فيهما ... كفلا بألفة شملىَ المتفرّق

قد زاد فى شوقى الغمام، وهاجنى ... زجل الرّواعد تحت ليل مطبق[2]

ولما كبر أقام فى منبج، حتى مات بها سنة ٢٨٤ هـ.

---

(١) الشآم: لغة فى الشام. المونق: الحسن المعجب.

(٢) زجل: رفع صوته وأجلب.

٢ – صورته الجسمانية والنفسية

ليس لدىّ ما يرسم صورة البحترىّ ، ولكنى أرجح أن وجهه وجسمه لم يكن بهما قبح أو عاهة ظاهرة ، وأنه كان أميل إلى النحافة منه إلى البدانة ، وأنّ لحيته ربما كانت طويلة .

ورجحت أنه لم يكن به قبح ولا عاهة ظاهرة من هجاء ابن الرومىّ له : فابن الرومىّ معروف بمقدرته على التهكم من أصحاب الخلق الممسوخة ، والذين بهم عاهات وانحرافات جسمية ، ولم نره فى هجائه للبحترىّ ذكر عيباً جسمياً يتخذه مادة للسخرية به سوى وصفه له بأنه ذو لحية طويلة ، إذ يقول :

البحترىّ ذنوب الوجه نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب[1]
أولى بمن عظمت فى الناس لحيته من نحلة الشعر – أن يدعى أبا العجب
ما كنت أحسب مكسوًّا بلحيتـــه يعنى من القفد ، أو يدعى بلا لقب[2]

فلو كان به عيب فى وجهه ، أو جسمه ، أو مشيته لما فات ابن الرومى تسجيله .

وأما نحافته فقد رجحتها لقوله :

فإن تلقنى نضو العظام فإنها جريرة قلبى ، منذ جُرِّت على جسمى[3]

وربما لم يكن الشاعر صادقاً ، كبشار الذى يقول :

إنّ فى بردىّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

مع أننا نعلم أنّ بشاراً كان ضخم الجثة ، مكتنزاً لحماً وشحماً .

هذا ، وربما كان البحترى على شىء من الوسامة ، فإنه ينسب إلى قومه من اليمن الفصاحة ونضارة العود ، إذ يقول :

نحن أبناء يعرب أعرب النا س لساناً وأنضر الناس عودا

ويروى صاحب الأغانى[4] أن البحترىّ كان من أوسخ خلق الله ثوباً .

---

(١) ذنوب الوجه : فى وجهه ذنب ، يعنى لحيته . (٢) القفد : الصفع .
(٣) النضو : المهزول . والجريرة : الذنب . وجرت : ظلمت .
(٤) ١٨ : ١٧٠ .

ونحن نشكّ فى هذه الرّواية ، ويؤكد شكّنا أنه كان يجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، وهؤلاء ، ولا ريب ، ينفرون من وسخ الثياب ، بل نؤكد أنه كان نظيف الثوب نظافة يستطيع بها أن ينادم خليفة ، وأن يمنحه الخليفة بعض خلعه ، كما يدلّ على ذلك قول البحترى للمعتز :

وأكثرت زادى من بدور تتابعت ... لجودك ، فيهن اللجين المطرّق[1]

ومن خلع فازت بلبسك ، فاغتدى ... لها أرج من طيب عرفك يعبق[2]

ويروى صاحب الأغانى أيضاً أن البحترى كان « أبغض الناس إنشاداً : يتشادق ، ويتزاور فى مشيته : مرّة جانباً ، ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرّة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كلّ بيت ، ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين ، فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ، هذا والله ما لا يُحسنُ أحد أن يقول مثله » . وقد كلفه ذلك أن سخر منه أحد ندامى الخليفة المتوكل وهو أبو العنبس الصيمرى ، وصنع بإغراء الخليفة شعراً ساخراً ماجناً ، على وزن قصيدة البحترىّ التى كان ينشدها ، ولم يكد البحترى يتمّ إنشاد قصيدته حتى ألقى عليه القصيدة الساخرة به[3] .

---

(١) اللجين : الفضة . وطرق المعدن : رققه .

(٢) الأرج : الريح الطيبة ، كالعرف . وعبق المكان بالطيب : انتشرت رائحة الطيب فيه .

(٣) الأغانى ١٨ : ١٧٣ . أما قصيدة البحترى فى المديح فقد كان مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم ... وبأى طرف تحتكم

ومنها :

قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم

المجتدى للمجتدى ... والمنعم بن المنتقم :

اسلم لدين محمـ ... ـد فإذا سلمت فقد سلم

وأما القصيدة الساخرة فقد جاء فيها :

والله حلفة صـادق ... وبقبر أحمـد والحرم

وبحق جعفر الإما ... م ابن الإمام المعتصم

لأصيرنك شهرة ... بين المسيل إلى العـلم

حيث الطلوك بذى سلم ... حيث الأراكة والخيم

يا ابن الثقيلة والثقيـ ... ـل على قلوب ذوى النعم ...

نشأ البحترىّ فقيراً ، كما اعترف بذلك فى شعره ، إذ يقول :

وعيرتنى سجال العـــدم جاهلة والنبع عريان ، ما فى فرعه ثمر[١]

ولكنه لم يدع هذه النشأة تحول بينه وبين نيل الغنى ، حتى صار له قهارمة وكتاب[٢] ، وامتلك قرية كانت موقوفة على أولاده بباب منبج[٣] .

والسرّ فى ذلك يعود إلى ما كان بين جنبيه من عزيمة قويّة ، وهمّة تكلفه الجليل ، وتحمله على المشاقّ ، فعزيمته القويّة هى التى دفعته إلى الرحلة والأسفار . وقد قام البحترى بالكثير منها ، لا يثنيه عنها إلا أن ينال أمله ، وتسمع روح عزمه ومضائه فى قوله :

فإنى إن أزمعْ غدوًّا لطية أغلسْ . وإن أجمع رواحاً أهجّر[٤]

هذه العزيمة قد اقترن بها طموح لا يرضى بالواقع ، ولا يقنع بما بين يديه ، وكانت حياته دليلا على ذلك ، وقد صوّر لنا ذلك الطموح إذ يقول :

وأرى همّتى تكلفنى حم ل أمور خفيفهن ثقيلُ

ولو انى رضيت مقسوم حظى لكفانى من الكثير القليلُ

وكان يعتقد أنّ الضعيف الواهن هو هذا الذى إن وجد أدنى ما يكفيه فقد عزيمته ، ورضى بما نال :

والفسل يسابه عزيمتـــه أدنى وجود كفاية تسعه[٥]

لا يلبث الممنوع تطلبـــه حتى يثوب إليك ممتنعه[٦]

فهو لا يرى القناعة فى المجد والغنى فضيلة ، ولا يرى أن يلقى المرء بالسلاح ، وهو فى ميدان الجهاد لنيل الآمال ، إذا عرضت له صعوبة ، لأن العزيمة القوية تذللها :

---

(١) النبع : شجر تتخذ منه السهام والقسى .

(٢) العمدة ١ : ٦ . والقهارمة : جمع قهرمان وهو : الوكيل أو أمين الدخل والخرج . والكلمة من الدخيل .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(٤) أزمع الأمر : أظهر فيه عزماً . والغدو : التبكير . والطية : النية والحاجة . وغلس : مشى فى ظلمة آخر الليل . وأجمع : أعزم . والرواح : الذهاب فى العشى . وأهجر : أمشى فى الهاجرة ، وهى : نصف النهار فى القيظ .

(٥) الفسل : الضعيف لا رأى له . (٦) يثوب : يعود .

ما زال لى من عزمتى وصريمتى ... سند يثبت وطأتى أن تدحضا[١]
لست الذى إن عارضته ملمة ... ألقى إلى حكم الزمان وفوّضا[٢]

وكان يؤمن بأنّ الواجب هو العمل والجهاد ، أما النتائج فليس إليه أمرها :

ذريني من ضرب القداح على السّرى ... فعزمى لا يثنيه نحس ولا سعد[٣]
سأحمل نفسى عند كلّ ملمة ... على مثل حدّ السيف أخلصه الهند
فإن عشت محموداً فمثلى بغى الغنى ... ليكسب مالاً ، أو ينثّ له حمد[٤]
وإن متّ لم أظفر فليس على امرئ ... غداً طالباً إلاّ تقصيه والجهد[٥]

ومع ذلك كان البحترىّ متفائلا ، لا يرى الشدائد دائمة لا تريم ، ولكنها عما قليل تنجلى :

هل الدّهر إلاّ غمرة وانجلاؤها ... وشيكاً ، وإلا ضيقة وانفراجُها[٦]
تقضّى الهمومُ ، لم يلبّث طروقها ... زَماعى ، ولم يغلق علىّ رِتاجُها[٧]

كان البحترى عارفاً بقدر نفسه ، مغروراً بشعره ، يقول لأحد ممدوحيه :

وأعلم أن السبل ما فاجأتكمُ ... بزورٍ من الأقوام مثلى ، ولا وفد[٨]

وكانت معرفته بقدر نفسه تدعوه إلى البعد عن مواطن الإهانة ، ولقد ثار عندما أهين فى مجلس المتوكل ، وعزم على أن يعود إلى بلده ، مضحياً بالمال والجاه[٩].

---

(١) الصريمة : العزيمة . ودحضا : زلق .

(٢) عارضه : قاومه . والملمة : النازلة الشديدة .

(٣) ذريني : دعيني . والقداح : جمع قدح ، وهو : السهم ، وكان للقداح أسماء ، وكان من عادة العرب أن يستشيروا هذه السهام قبل أن يقوموا بأعمالهم ، فإن خرج لهم السهم الرابع انصرفوا إلى العمل ، وإلا انصرفوا عنه . والسرى : سير الليل . وثناه : صرفه عن حاجته .

(٤) نث الحمد : أفشاه .

(٥) تقصى الشيء : بلغ الغاية فى البحث عنه . والجهد : الطاقة .

(٦) الغمرة : الشدة . والوشيك : السريع . والانفراج : الانكشاف .

(٧) تقضى : تتقضى . يلبث : يؤخر . وطروقها : ورودها . والزماع : الثبات والعزم . والرتاج : الباب المغلق .

(٨) الزور : السيد والرئيس .

(٩) راجع الأغانى ١٨ : ١٧٣ و ١٧٤ .

هل كان البحترىّ بخيلا ؟ مضى أكثر المؤرخين على أنه بخيل ، ويروون ما يدل على بخله[١] ، ووقف صاحب[٢] البحترىّ موقف المنكر على المؤرخين هذا الزعم ، واجداً فى شعر الشاعر ما يثبت كرمه ، كقوله للمتوكل :

مَن شاكر عنى الخليفة فى الذى أولاه : من طَوْل ، ومن إحسان[٣]
حتى لقد أفضلت من أفضاله ورأيت نهج الجود حيث أرانى[٤]
ملأت يداه يدى ، وشرّد جوده بخلى ، فأفقرنى ، كما أغنانى
ووثقت بالخلق الجميل معجلا منه ، فأعطيت الذى أعطانى

وقوله للفتح بن خاقان :

أعن على كرم أخنى على نشبى وهمّة اخلقت أخلاقَ الجددا[٥]

ويروى عن القاضى التنوخىّ فى نشوار المحاضرة أن المعتزّ بعدما استتبت له الخلافة ، ودخل عليه البحترىّ ، وأنشده ، أعطاه ستة آلاف دينار ، وقال له : وكأنّى بك وقد بادرت ، فاشتريت غلاماً وجارية وفرساً وفرشاً ، فأتلفت المال . لا تفعل ؛ فإنّ لك فيما تستأنفه من أيامك معنا ، ومع وزرائنا ، وأسبابنا ، إذا علموا موقعك منا ، غناء عن ذلك[٦] .

ونحن مع صاحب البحترى ، لا نرى الشاعر بخيلا ، معتمدين فى ذلك لا على شعره الذى يتحدث فيه عن كرمه ، فكثيراً ما يقول الشعراء ما لا يفعلون . ولكنا نعتمد على قصيدة ابن الرومى الذى ما كان يمكن أن يفوته تسجيل هذا الخلق ، الذى أبدع فى تصويره ، حين قال يهجو :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
واو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ . (٢) جرجس كنعان ص ١٩ .
(٣) الطول : الفضل والعطاء .
(٤) أفضل عليه : أناله من فضله ، وأحسن إليه . والنهج : الطريق الواضح .
(٥) النشب : المال . وأخنى عليه : أهلكه . وأخلق الثوب : صيره بالياً .
(٦) البحترى ص ١٩ .

ولا سيما أن البحترى كان يغيظه ؛ فيرسل إليه صرة من المال عقب كل هجاء ينظمه ابن الرومى فيه ؛ فكانت الفرصة سانحة لتسجيل ابن الرومى هذا البخل ، ولكنه لم يفعل .

أما ما أورده صاحب الأغانى من هجائه لضيف تناول الطعام عنده . وتقتيره على أخ له وغلام ، فقد يكون لسوء تناول الضيف للطعام ، أو لشدة شراهته ، ولبطالة أخيه وغلامه ، وأنهما لا يجيدان عملا يستحقان عليه الطعام

من أخلاق البحترىّ الشجاعة . وقد حارب تحت لواء بعض القواد : وقال له من قصيدة :

وأنا الشجاع ، وقد بدا لك موقفى بعقرقس . والمشرفيـــة شهدى[1]
ورأيتنى ، فرأيت أعجب منظـــر ربّ القصائد فى القنا المتقصد[2]

كما كان يحب الأخذ بالثأر ؛ وقصيدته التى قالها عقب مقتل المتوكل . وتلك التى قالها بعد مقتل يوسف الثغرى أحد قوّاد المسلمين فى حرب الروم ، فيهما دلالة على تمكن هذا الخلق فيه .

كان البحترى يؤمن بالعقيدة التى بينها عمر بن الخطاب فى قوله : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرّزق ، وهو يقول : اللهم ؛ ارزقنى ، وقد علم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ، ولا فضة » ، ولذا كان برغم إيمانه بالقضاء والقدر ، وتعييره من لا يدين بهما ، كقوله فى هجاء أحمد بن صالح :

عُليجٌ ، يدين بأن لا إله وأن لا قضاء. وأن لا قدر

لم يدع هذه العقيدة تحول بينه . وبين الجدّ فى طلب المال والغنى . إذ يقول :

لست بالواهن المقيم ، ولا القـــا ئل يوماً : إنّ الغنى بالجدود[3]

والنجاح ، كما يؤمن به البحترى ، مرهون بالجدّ والعمل :

والرّزق لليقظ المشيع رأيه بالعزم ، لا للعاجز المأفون[4]

---

(١) عقرقس : اسم واد فى بلاد الروم . معجم البلدان ٦ : ١٩٦ . والمشرفية : السيوف .
(٢) المتقصد : المنكسر .
(٣) الجدود : الحظوظ .
(٤) المأفون : ضعيف الرأى .

وعقيدته فى الرزق هى التى جعلته يشرق فى البلاد ويغرب ، ويجوب أرجاء قسم عظيم من المملكة الإسلامية :

تقاذفُ بى بلاد عن بلاد كأنى بينهـــا جمل شرودُ[١]
وبالساجور من ثعل بن عمرو صنـــاديدٌ من الفتيان صيدُ[٢]
إذا سجع الحمام هنـــاك قالوا لفرط الشوق : أين ترى الوليد؟[٣]

وما كان يطمئن به المقام إلا حيث يجد السعادة والحظ الجزيل :

وأحبّ آفاق البـــلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

٣ ــ علاقته بعصره

رأينا أن البحترى قد اتصل بخلفاء بنى العباس ورجال دولتهم ، وكان الشاعر يتشيع لبنى العباس، ويرى خلافتهم حقًّا لا مرية[٤] فيه ، وقد يبالغ فى ذلك ، حتى يعدّ خارجاً على الإسلام هذا الذى لا يعتقد أن خلافة العباسيين حق ، ولو صام وصلى ، فهم أبناء العباس عم النبىّ ، استسقى به عمر بعد أن حبس المطر عن المدينة :

شرفاً بنى العباس ، إن أباكمُ عمّ النبىّ ، وعيصه المتفرّعُ[٥]
وأرى الخلافة ، وهى أعظم رتبـــة حقًّا لكم ، ووراثة ما تنزعُ
أعطاكموها الله عن علم بكم والله يعطى من يشاء ويمنع

ويقول :

مخالف أمركم لله عاص ومنكر حقكم لاق أثاما
وليس بمسلم من لم يقـــدّم ولايتكم ، ولو صلى ، وصاما

أما بنو أمية فقد طلبوا الخلافة فجوراً وفسقاً ، ولذا هو مبتهج برجوع الأمر

---

(١) شرود : نافر .

(٢) الساجور : نهر بمنبج . وصناديد: جمع صنديد ، وهو : السيد الشجاع . والصيد : جمع أصيد وهو المتكبر .

(٣) سجع : غنى .

(٤) المرية : الجدل والشك .

(٥) العيص : الأصل ، ومنبت خيار الشجر .

إلى العباسيين . لأن الأمر عاد إلى أهله بينما استقر الهوان فى بنى مروان :

وأنتم بنو العبـــاس عمّ محمد ... يمين قريش ، إذ سواكم شمالها
لكم إرثها ، والحقّ منها ، ولم يكن ... لغيركمُ إلا اسمها وانتحالها[1]
وإن بنى حرب ومروان أصبحوا ... بدار هوان قد عراهم نكالها[2]
يغضون أبصاراً مغيظاً ضميرها ... ويخفون ألحاظاً مبيناً كلالها[3]

ولكنه لم يكن ناصبيًّا كذلك[4] . برغم أنه قد جالس المتوكل الذى كان يكره علىّ بن أبى طالب . ويبتهج لمن يسبه ، ويغدق العطاء على من ينظم الشعر فى هجائه . ولم نعثر فى شعر البحترى أيام المتوكل أو غيره على ما يدلنا أنه خاض فى علىّ وسبه ، بل لعله كان يتألم لما أصاب العلويين فى ذلك العهد من اضطهاد وظلم ، حتى إذا جاء المنتصر ، وردّ الحقوق إليهم ، فرح الشاعر ، وأثنى عليه بذلك ، بل كان يحنو على علىّ بن أبى طالب ويعظمه ، ويراه أحقّ الناس بالخلافة بعد رسول الله . ذم بعض معاصريه سنّى بن أبى طالب ؛ فقال له البحترىّ :

يا سوأتا من رأيك العـــازب ... وعقلك المستهتر الذّاهب[5]
إن وقفت سوقك ، أو أكسدت ... بضاعة من شعرك الخائب[6]
أنحيت ، كى تنفقها ، زارياً ... على علىّ بن أبى طالب[7]

ويقول :

كنا نكفر من أمية عصبة ... طلبوا الخلافة فجرة ، وفسوقا
ونقول : تيم قرّبت ، وعدىّ هـــا ... أمراً بعيداً حيث كان سحيقا[8]
ونلوم طلحة والزبير كليهما ... ونعنف الصدّيق والفاروقا

---

(١) انتحل الشىء : ادعاه لنفسه ، وهو لغيره .
(٢) عراهم : ألم بهم . والنكال : ما يجعل عبرة للغير .
(٣) الكلال : التعب والإعياء .
(٤) الناصبى : هو من ناصب أهل البيت العداء .
(٥) العازب : الغائب . والمستهتر : كثير الأباطيل .
(٦) أكسدت : كسدت .
(٧) أنحى عليه : أقبل عليه . وزاريا : عائباً .
(٨) تيم : قبيلة أبى بكر الصديق . وعدى : قبيلة عمر بن الخطاب . والسحيق : البعيد .

وهمُ قريش الأبطحين إذا انتموْا طابوا أصولاً فيهم وعروقا

فهو يعدّ الأمويين عصبة كافرة فاجرة ، ويرى أبا بكر وعمر قد نالا أمراً بعيداً ما كان لهما أن ينالاه ، ويلوم طلحة والزبير لأنهما خرجا على بيعة عليّ . وذلك مع إيمانه بأنّ هؤلاء جميعاً يقفون فى القمة من قريش .

كان رأى البحترىّ فى الأحداث السياسية رأى من بيده الغلب والسلطان ، وذلك طبعىّ لشاعر يتكسب من شعره . وليس له مورد رزق سوى هذا الشعر ، فإذا عزم المتوكل على الانتقال إلى دمشق ، واتخاذها عاصمة لملكه ، مضى البحترىّ يمدحها ، ويلمز العراق ، ويقول :

قد رحلنا عن العرا ق ، وعن قطبهـا النكد
حبذا العيش فى دمشـ ق ، إذا ليـلها برد
حيث يستقبل الزّما ن ، ويستحسن البلد
سفر جدّدت لنـا الا هوَ أيامه الجـدُد
عزم الله للخلي فة فيـه على الرّشد

فإذا أزمع العودة إلى العراق أخذ الشاعر يطرى هذه العودة قائلا :

أتى من بلاد الغرب فى عدد النقا نقا الرّمل من فرسانه وخيوله [1]
فأسفر وجه الشرق ، حتى كأنما تبلج فيه البـدر بعد أفوله [2]
وقد لبست بغداد أحسن زيها لإقباله ، واستشرفت لعدوله [3]
ويَثنيـه عنها شوقه ونزاعه إلى عرض صحن الجعفرى وطوله [4]
إلى منزل فيـه أحباؤه الألى لقاؤهم أقصى مناه وسوله
محلّ يطيبُ العيش رقةُ ليله وبرد ضُحاه ، واعتدال أصيله [5]

---

(١) النقا : القطعة من الرمل المحدودبة .

(٢) سفر : أضاء . وتبلج : ظهر ، واتضح . والأفول : الغروب .

(٣) استشرف الشيء : رفع بصره لينظر إليه . وعدوله أى تركه رأيه الأول فى اتخاذ دمشق عاصمة له .

(٤) ثناه عنه : كفه وصرفه . والنزاع إلى الشيء : الشوق إليه . والجعفرى : قصر بناه المتوكل فى سر من رأى .

(٥) الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب .

ونراه إذا ولّى المتوكل أبناءه الثلاثة أولياء للعهد، يعلن اغتباطه بذلك قائلا:

حاط الرعية حين ناط أمورها بثلاثة بكروا ولاة عهود
كانوا أحقّ بعقد بيعتها ضحى وبنظم لؤلؤ تاجها المعقود

مع أن حادث الرشيد فى تولية بنيه الثلاثة ولاية العهد، وما جرّه ذلك من حروب بين الأمين والمأمون — كان لا يزال حيًّا فى النفوس، جديراً أن يصرف الخلفاء عن تكريره.

ولما أراد المستعين تولية ابنه العباس ولاية العهد قال البحترى:

وحسبك أنه فى كلّ حال شبيهك يا أمير المؤمنينا
يُسرّ المسلمون بأن يروه لديك ولىّ عهد المسلمينا
فجدّد عقد بيعته تجدّد لهم خفضاً من الدّنيا ولينا[1]

سيطرت روح العصر على البحترى، فدفعته إلى حبّ المال، ليستمتع بلذائذ الحياة، ودفعه حبّ المال إلى إرضاء من بيده السلطان، فربما هجا اليوم من مدحه بالأمس. أو مدح اليوم من هجاه بالأمس: هجا المنتصر ودعا عليه ألا يهنأ بالخلافة، ثم مدحه: ومدح ابن الخصيب الذى كان وزيراً للمستعين، فلما غضب عليه الأتراك. واستصفوا ماله. حرّض الخليفة عليه فقال:

لابن الخصيب الويل: كيف انبرى بإفكه المودى. وإبطاله[2]
كاد أمين الله فى نفسه وفى مواليه وفى آله[3]
فأنزل الله به نقمة غيرت النعمة من حاله
يا ناصر الدين، انتصر موشكاً من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدّم والمال، إن نظرت فى باطن أحواله

ومدح المستعين، فلما آلت الخلافة إلى المعتز هجاه.

أحبّ البحترى المال، وأخذ عن المترفين من أهل عصره أيضاً حبّ

---

(١) خفض العيش: سهل، وكان هنيئاً.

(٢) انبرى: تعرض. والإفك: الكذب. والمودى: المهلك. وأبطل الرجل: أتى بما لا حق له فيه.

(٣) كاده: مكر به وخدعه. ويريد بأمين الله: الخليفة. وبالموالى: جنده.

الاستمتاع بالحياة ، والتنعم بلذائذها . وقد حفظ لنا فى شعره صورة من صور لهوه ومرحه ، فهو محبّ لابنة الكرم ، مولع بالغناء ، مغرم بالساقى الجميل ، فهو يذكر المدام فى الربيع وفى الخريف ، وحين تدجن السماء وتتراكم السحب . متخذاً من الطبيعة نفسها مغرياً له على رشف الكئوس ، وكانت أيام العيد والمهرجان فرصاً سانحة للبحترى يقضيها بين الخمر والغناء ، ولم يكن لديه شىء يسرّه أكثر من جلسة على ضفاف نهر ، يحيط به الورد والزهر ، حيث الماء والسماء ، والنسيم العليل يحمل أريج الأزهار . ويختلط ذلك كله بالغناء وشرب الراح . فيطرب ما شاء له الطرب . وقد يجد من تمام سعادته أن يبعث إلى المخلصين من أصدقائه راجياً منهم أن يشاركوه فى هنائه بحضور مجلسه .

وهكذا اتصل البحترى بسياسة عصره ، واتخذ مذهب المترفين من أهل هذا العصر مذهباً له ، كما شارك الطبقة المثقفة فى الأخذ بنصيب كبير من الثقافة الشائعة يومئذ ، فإنه لم يقف عند الحدود التى نالها فى نشأته الأولى ، بل ظفر بحظ كبير من علوم أهل عصره .

أما علمه باللغة فيكفى أن ترجع إلى ديوانه وحماسته ، لتعرف مقدار علمه بها ، وعنايته بأمرها ، عناية جعلته دقيقاً فيما يستخدمه من الكلمات .

وكان علمه بالنحو وقواعد التصريف ضروريًّا لشاعر يريد أن يأخذ مكانته بين شعراء عصره ، وبخاصة فى هذا العصر الذى شاع فيه اللحن ، وصار من الضرورى لمن يريد التفوّق فى الأدب أن يدرس النحو والصرف ، ليسلم من الخطأ ، فينجو من ألسنة الناقدين ، وإن كان لم يتعمق فى تلك القواعد ، فالتعمق فيها ليس فى مذهبه من مهام الأديب .

عصمته هذه الدراسة من الخطأ ، مضافاً إليها نشأته فى منبج وباديتها ، حيث الأعراب الذين لم تكن لغتهم قد فسدت بعد . ولهذا قلت مآخذ النقاد عليه من هذه الناحية[1] ، وكانت الضرورة هى التى دفعته إلى مثل مدّ المقصور وقصر الممدود ، وقطع همزة الوصل ، ووصل همزة القطع ، وما إلى ذلك .

---

(١) ذكر أبو العلاء المعرى هذه الأخطاء فى كتابه : عبث الوليد .

ومما لا ريب فيه أن البحترىّ كان لا يجهل وزن الشعر ، ولا علم عَروضه وقوافيه ، وقد وضع الخليل بن أحمد أسس علمهما ، وعُنى الناس بهما ؛ لطرافتهما ، وقد سلم شعر البحترى فى جملته عن عيوب العروض والقافية ، إلا هنات نرجح أنها حدثت من تحريف وقع فى رواية شعره ، كهذا البيت ، إذ ورد :

ولماذا تتبع النفس شـــيئاً جعل الله الفردوس منه بواء[1]

فالرّواية الصحيحة لهذا البيت ما نقله الآمدى فى كتابه : «الموازنة» ، وهى : « جعل الله الخلد منه بواء »[2] .

واتصل البحترىّ اتصالاً وثيقاً بالأدب الموروث والأدب المعاصر . وكان من نتائج اتصاله بالأدب الموروث أن اختار كتابين منه سوف نتحدث عنهما ، كما كان يعنى بأن يقف بنفسه على مواطن القوّة أو الضعف فى الشعر : حكى عن البحترىّ أنه قال : فاوضت علىّ بن الجهم[3] فى الشعر ، وذكر أشجع السلمىّ[4] ، فقال : إنه كان يخلى . فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها ،

---

(١) البواء : المساوى . (٢) الموازنة بين الطائيين ص ١٧٦ .

(٣) على بن الجهم : شاعر مجيد عالم بفنون الشعر ، اختص حقبة من الزمن بالمتوكل ، ثم هجاه ، فنفاه إلى خراسان وكتب إلى طاهر بن عبد الله أنه إذا ورد عليه صلبه يوماً ، فوصل إلى شاذياخ نيسابور ، فحبسه طاهر ، ثم أخرجه ؛ فصلبه مجرداً نهاراً كاملا ، فقال فى ذلك :

ثم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الـ إثنين مسبوقاً ولا مجهولا
فصبوا بحمد الله مـــلء قلوبهم شرفاً وملء صـــدورهم تبجيلا

ثم رجع إلى العراق فإلى الشام ، ثم خرج من حلب متوجهاً إلى العراق فخرجت عليه وعلى جماعة معه خيل من بنى كلب فقاتلهم قتالا شديداً ولحقه الناس وهو جريح بآخر رمق . وتوفى فى بغداد سنة ٢٤٩ هـ ولما نزعت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة فيها قد كتب فيها :

وارحمتا للغريب فى البـــلد الـ نازح ماذا بنفسه صـــنعا
فارق أحبـــابه فـــا انتفعوا بالعيش من بعـــده ، ولا انتفعا
كان عزيزاً بقـــرب دارهم حتى إذا ما تبـــاعدوا خشعا
يقول فى نأيه وغربتـــه عـــدل من الله كل ما صـــنعا

وله ديوان شعر نشر أخيراً فى دمشق بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك .

(٤) أشجع السلمى : هو أبو الوليد أشجع بن عمرو السلمى من بنى سليم : شاعر فحل ، كان معاصراً لبشار . ولد باليمامة ، ونشأ فى البصرة ، ومدح البرامكة ، وانقطع إلى جعفر بن يحيى ، فقربه من الرشيد ، فأعجب به الرشيد ، فأثرى ؛ وحسنت حاله ، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد .

فلما انصرفت فكرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ، فإذا هو ربما مرّت له الأبيات مغسولة ، ليس فيها بيت رائع [١] .

وعرف البحترىّ ما وصل إليه من تاريخ العرب ، وبخاصة قومه طيئ ، وقد أخذ المعرى عليه قوله :

ومن إرثكم أعطت صفية مصعباً جميل الأسى ، لما استحلت محارمه

علق أبو العلاء على هذا البيت ، فقال : «بنى أبو عبادة هذا المعنى على أن صفية ابنة عبد المطلب كانت توصف بالصبر ، ولم يرو عنها شىء من ذلك ، بل ذكر أن ولدها الزّبير بارز رجلا بين يدى النبىّ فجزعت من ذلك ، وقالت يا رسول الله ، يقتل ابنى ، فقال : ابنك يقتله ، فقتله الزبير . وإنما الموصوفة بالتصبر أسماء ابنة أبى بكر ، وهى أم عبد الله بن الزبير . وليست أم مصعب» [٢] .

هذا وقد جرى كثير من المؤرخين للبحترىّ على أنه لم يدرس الفلسفة ، ولا مسائل المنطق ، مستدلين على ذلك بقوله وهو يرد على عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر :

كلفتمونا حـــدود منطقكم فى الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ ـمنطق ما نوعه ، وما سببه

وليس فى ذلك دليل على ما يدّعون ؛ لأن الشاعر يرى فى هذه الأبيات أن للشعر طريقاً ، وللمنطق آخر ، وأنه ليس من الضرورى أن يتبع الشعر حدود المنطق ، لأن امرأ القيس زعيم الشعراء لم يكن يعرف المنطق ، ولا خضع شعره لقواعد هذا العلم . وذلك القول لا يدلّ على أن البحترىّ لم يعرف الفلسفة والمنطق .

وإنى أستبعد جهل البحترىّ لهذه المادة التى كان لها رواج كبير فى عصره ، وأرى أنه قد تأثر بالمنطق تأثراً بيناً عندما ألف كتابه : «الحماسة» ، واتبع فيه تقسيماً دقيقاً أعمق من تقسيم أبى تمام لحماسته ، بل إنه فى هذه القصيدة نفسها جارى عبيد الله فى بعض مسائل الفلسفة ، فقسم العقل إلى مطبوع ومكتسب :

والعقل من صيغة وتجربة شكلان : مولوده ، ومكتسبه

---

(١) العمدة ١ : ١٣٧ .
(٢) عبث الوليد ص ٢٠٥ .